التقاليد ويسخر به ، ويتحدث عن الحياة وقضيتها ، ويتكلم عن الأيام والساعات والدقائق والثواني ، وهي ماضية سراعاً ، ونحن ماضون معها لا نستطيع لها رداً . فلا نستطيع لأمر وقفاً ولا تغييراً

لست أدري فيم علمنا وفكرنا إن حمّلنا تيار الساعات والدقائق راضين بكل واقع مستسلمين لكل حدث . إنما يذهب التيار بالأجسام الجامدة أو الميتة ، فأما الحي فلا يستسلم للتيار وبه قوة ، ولا يرضى الغرق وفيه رمق .

إن علينا أن نسيطر على الخليقة ونسخرها كما نشاء جهد طاقتنا ، وإن علينا أن نسيّر الحياة بعقولنا وعلومنا ، وأن نقهرها لإرادتنا ما استطعنا . فما هذه الدعوة إلى الاستسلام بل المضيّ إلى الموت ؟ وما هذا الخنوع للعبودية باسم الحرية ؟

إن الاستعباد قبيح في كل صوره ؛ ولكنه أقبح ما يكون حين يصيب النفوس ، فتخضع للواقع ، وتحتج بسير الزمان .
إن الحر يفكر ويقول ويعمل كأنّ إرادته من قضاء الله ، وجهادَه من قدرة الله ، ساخراً بسلطان الزمان والمكان — ليخلق تاريخاً ، وينشئ جيلا ، ويغير الزمان والمكان .
وهل خلد في تاريخ البشر إلا من تصدى للباطل يدمغه بالحق ، وللشر يغلبه بالخير ، وللفساد يمحوه بالصلاح ؟ وهل دعا نبي أو نادى مصلح إلا بصد التيار الجاري ، ورد الأحداث السائرة ، وتغيير السيرة الفاسدة .

إن الذي يريح نفسه وعقله من تكاليف الإصلاح ومشقة الجهاد يساير الزمان ، ويحتج بالمكان ، ويمضي مع الماء أو الريح ؛ ولكن قليلنا يحملون كل صعب ، ويعانون كل مشقة ، ويستصغرون كل هول ، ويسخرون من كل سخرية ، ليثبتوا بالحق وفي الحق على مضي الأيام والساعات والدقائق والثواني كالطود في مجرى السيل ، والحق في معترك الأباطيل .

يا أخي الزيات : إنها لفتنة ، وإنها لمحنة . وسيمضي الأحرار لا العبيد ، يقولون ويعملون ويجاهدون حتى يبلغوا غايتهم أو يقضوا نحبهم على السبيل قاصدين وعلى الله متوكلين .

وإني لأدعوك وأمثالك من الفئة القليلة الناصبة للحق ، الناصرة للخير، إلى الكتابة ، والصدع بالدعوة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأداء الأمانة ، على رغم الزمان ، وعبيد الزمان.
« ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » .

(الإسكندرية) عبد الوهاب عزام

صور من الحياة :

جنـــــة الشيطان !

للأستاذ كامل محمود حبيب

« يا لحوم البحر ... سلخك من ثيابك جزار ! »
مصطفى صادق الرافعي

لشد ما شاقني أن أقضي ساعة من العمر إلى جوارك — أيها البحر — ساعة أفزع فيها من وقدة القيظ إلى نسيمك الندي الرطيب ، أسعد بالراحة من عناء العمل ، وأسكن إلى الهدوء من صخب الحياة ، وأتحلل من دواعي العيش ، وأنفض وعثاء الطريق! فأنا — دائماً — أجد فيك هدوء البال ، وراحة النفس ، وصحة البدن — إنني ما زلت أذكر يوم اللقاء الأول — أيها البحر — يوم أن كنت فتى غضّ الإهاب ، ريّق العود ، بسّام الخواطر ، لا تشغلني نوازع الحياة ، ولا ترمضني سفعات الرزق ، لا أرى الدنيا سوى متعة الروح ولذة القلب وفرحة النفس — ورأيتك — لأول مرة — فراعني موجك الثائر وهو يتلاطم في قسوة ويتهارش في عنف ، وأزعجني هديرك الصاخب وهو يتصاعد في عنفوان لا يهمد ، وأخذتني روعة المنظر الماثل حين كلّ البصر من أن يحيط بنواحيك ، وحين عجز الخاطر من أن يلم بأطرافك ، وسحرتني الشمس وهي تكاد تتوارى خلف الأفق ، فتندفع تبكي أفولها بعبرات من دم أحمر قان يتألق على صفحة اللجة التي توشك أن تتردّى فيها — فوقفت أتأمل في صمت ، وقد غلبتني الحيرة ، وسيطر عليّ الذهول — فما استطاعت الكلمات أن تتحدث عن بعض خلجات فؤادي ، لأن عالمك أدهشني يوم اللقاء الأول ، أيها البحر — وكنت حينذاك شاباً مزباً أحتال للأمر فأنفذ إليه في غير عناء وأبلغه في غير عنت . وللشباب أساليب شيطانية ماكرة تؤزها عزيمة جياشة لا يعبث بها وهن ولا يقعدها ضعف ، فانسربت في مسالك الطيش أنعم بأفانين اللذة وأرشف رضاب السعادة ، هنا — هنا على شاطئك الجميل الجذاب ، أيها البحر .

والآن — وقد انطوت سنوات وسنوات منذ يوم اللقاء الأول — ما زلت أحس بالذكرى الرقافة تتقد في خاطري ، لأنني كنت شاباً مزباً أحتال للأمر فأنفذ إليه .

واليوم جئت إليك بقلب الرجل وعقل الفيلسوف ، فماذا رأيت فيك ، أيها البحر ؟

وجلست بإزائك أياماً أستشف حكمتك من خلال الموج وأقرأ خواطرك من ثنايا الزبد وأتسمع كلماتك من بين الصخب ، وإن قلبي ليفتقد جمالك الأول لأنه شاب فلم يعد يحس سحرك القديم .

وأخذ القوم يفدون إليك أرجالا خلف أرجال وزمراً من وراء زمر ، فطغى لغطهم على همساتك وتلاشت نبرات صوتك الرقيقة خلال الضجة العنيفة على الشاطئ . فناءك أن تعجز – وأنت عظيم – عن أن تسكت هذا اللجب ، فثار موارك واضطربت أمواجك ، ووقف الجمع حيالك ينظرون في عجب ومن أمامهم (الراية السوداء) تنذرهم بالخطر العظيم . ثم استخفك الطرب حين رأيتك تظفر بهذا الجمع فتنفث في نفوسهم الفزع والرهبة ، فنبرت أياماً تقهقه بضحكات ساخرة مخيفة ، وطالت ثورتك فرحت أحدث نفسي : « غداً ، حين ينفرط عقد الصيف ، يعود إليك – أيها البحر – الهدوء وتشملك السكينة لأنك تكون – إذ ذاك – قد نفضت عن نفسك همّ هذا المشهد .

وسمعتك – أيها البحر – تحدثني من خلال ثورتك قائلاً :

« هذا الشاطئ كان هاجعاً يغط في نومه فلما دبت في جنباته أول سمات النشاط والحركة هب الشيطان من سباته العميق ينشر زخرفه على أعين الناس وهو يترنم بالنشيد الأرضي الساحر فانطلق الحشد صوبه يتهافتون على بضاعته في غير روية ولا عقل ، وما زخرف الشيطان إلا اللذة والشهوة والفجور ...

« هذا الشاطئ هو الجنة الشيطانية التي تضم ألف آدم وألف حواء ، ولكنها لا تبسم عن نبتة واحدة ولا تزدهي بثمرة ، إلا ورقة التوت ... ورقة صاغها الشيطان بيده الصناع ليتوارى خلفها ثم يندفع من بين ثناياها يبذر غراس الإثم في القلوب الفاجرة فتؤتي أكلها – بعد حين – ندماً وحسرة . والشاطئ في الصيف ملعب الفجور ومسرح الفسق ومرتع اللهو

« لا عجب ، فإن حرارة الشاطئ لا تصهر إلا الفضيلة والإباء ، وإن مائي – ماء البحر الملح – لا يغسل إلا الشهامة والكبرياء ، وأن نسماتي اللطيفة لا تزيح من الأنفس سوى الأنفة والعفة ! ...

« هذه اللحوم البشرية العارية جاءت تطلب الصحة والعافية والجمال فارتدغت في حمأة الرذيلة ، وتلك النظرات الزائغة تطوف بأرجاء المكان وفيها نهم ما يشبع وبها نهمة ما ترتفع ، وهي – دائماً – لا ترعوي من حياء ولا ترتدع من خجل . وهذه المباذل الإنسانية تنحط إلى حيوانيتها حين تتعرى من الدين والشرف

« إني أتقزز من هذا الفتى الذي جاء يغسل قاذورات جسمه ليكشف عن أدران نفسه

« وأمقت هذه الفتاة الطائشة حين تنفلت – بين الحين والحين – من بين يدي الرقيب ، وهو هين لين ، لتسمر ساعة إلى فتى من فتيان الشاطئ ؛ تعرفت إليه في نزوة من نزوات القلب ، واطمأنت إليه في ثورة من ثورات الشباب ، فاغترها بحديثه ، وخلبها بشبابه . والتاث عليها الأمر فعميت عن أن تراه وهو يجرها إلى هاوية من العبث والخطيئة ، والشيطان من بينهما يزوّق الحديث ويمهد السبيل » . وقلت لي ، أيها البحر :

« أما هذا الرجل ، فهو قصة الشاطئ وروح الشر وبلاء الإنسانية . هو رجل جاوز سن الشباب ، فلمعت في فوديه شعرات بيض علامة العقل في رأس أحمق ، وعبثت أنامل الأيام بنضارته فسطرت خطوط الرزانة على جبين فارغ . هو أب وزوج ، ولكن أنانية عاصفة دفعت به إلى هنا ليعيش وحده عمراً من عمره ينشد الفراغ من أعباء الحياة وينشد الراحة من قيود الأسرة ويطلب النجاء من أغلال الدار . ومن ورائه زوجته وأولاده يلتهبون في لظى القاهرة ، ويتحرقون في عذاب الوحدة ، ويتقلبون في ألم الفراق

« وبهره منظر البحر وهو يموج في آذيه ، وخلبته هبات النسيم وهي عليلة ندية ، وسحرته الأجسام العارية وهي تتألق في ضياء الشمس ، ووسوس له الشيطان فانطلق الرجل في تيّاته يذرع الشاطئ وإن في عينيه الظمأ والفجور

« يا لضعة الإنسان إن خلع إنسانيته ليصبح وحشاً كاسراً لا يؤمن إلا بشريعة الناب والظفر !

« واطمأن الرجل – بعد لأي – إلى فتاة من فتيات الشاطئ ... فتاة في ريعان الشباب ورونق الحياة وجمال الأنوثة ، تقضي ضحاية يومها بين طفلين تحت مظلة ، فهو يرمقها بنظرات شرهة جائعة ، وهي تختلس إليه نظرات متكسرة . وابتسم هو وابتسمت . ثم انطوت الأيام فإذا الفتاة قد أمهلت وانقادت ، وإذا هي إلى جانب صاحبها يتحدثان في غير رقبة ولا حذر رغم أنها زوجة وأم ؛ زوجة موظف صغير طارت من بيته لتنعم هنا بالحرية بين طفليها . لقد نبذت زوجها هناك في القاهرة يذوق مرارة الوحدة والحرمان في الدار ، ويعاني عنت العمل في الديوان